صحائف مطوية :

رأس النقب وخليج العقبة

حملة البرنس أرناط على الأراضي المقدسة الإسلامية

عام ٥٧٨ هجرية

للأستاذ أحمد رمزي بك

قالوا « الحرب رحى تقالها الصبر وقطبها الكر ومدارها الاجتهاد وثقافها الاناة وزمامها الحذر » (العقد الفريد) ، أما تلك التي أضعها أمامك فكانت ملحمة من ملاحم الحروب القاصلة جمعت بين قوات البر والبحر معا ، وقامت فيها المصادمة على ظهور المراكب والمطاردة على رمال الصحراء . ولم تتسع للصبر لأن السرعة كانت عنصرها ، ولا للكر والاجتهاد واصطناع الخديعة لأنها جاءت على غير استعداد ، ولم يصاحبها الحذر لأنها بُنيت على المفاجأة والاقدام .

كان مشروعاً دفعه الحقد والحق والغرور ، ذلك المشروع الحربي الذي دار بمخيلة البرنس أرناط صاحب الكرك وتسميه الفرنجة Renauld de Chatillon فقد أقسم أيمانا ملغظة على فتح الحجاز وإيذاء المسلمين في أشرف بقعة يقدسونها ، ولذلك أنشأ أسطولا في أراضيه جعله من قطع حملتها الابل ، وسارت بها وسط القفار ليلقى بها في خليج العقبة ، وساعده بعض أشرار البدو في عدوانه ولم تأت سنة ٥٧٨ إلا والأسطول يمخر عباب البحر الأحمر ، وإذا به ينقسم إلى فرقتين أقامت الأولى على حصن المسلمين بخليج العقبة تحاصره ، واتجهت الاخرى جنوبا تهاجم موانئ البحر على الشاطئين الاسيوي والافريقي فاختل طريق الحج وأخذ الأسطول يطارد المسلمين في عقر ديارهم وعلى أمواج بحرهم ، فأصبحوا تحت رحمة هذا الجبار ، ولما وصل الخبر إلى مصر وكان بها الملك العادل ابو بكر نائباً عن أخيه السلطان صلاح الدين ، بادر بانشاء أسطول نقله إلى خليج السويس وسلم قيادته للحاجب حسام الدين لؤلؤ ، فسار مجداً في طلب الفرنجة حتى أوقع بهم بعد أن أمضوا شهوراً يجوبون البحر الأحمر إلى عدن وينزلون مقاتلتهم إلى ساحل الحجاز ، فأحدثوا أموراً لم يسمع في الإسلام بمثلها حتى ذكر المؤرخون « أنهم توجهوا إلى المدينة النبوية فلم يبق بينها وبينهم سوى مسيرة يوم واحد » .

قرأت هذا في مراجعتنا ثم وقع نظري على ما كتبه الأب لامنس اليسوعي إذ قال : « لفت خليج العقبة وموقع أيلة أنظار البطل الصليبي ولمس أهميته فعمل على احتلال تلك البقعة ونشر الرعب بأسطوله ، ولا شك في أنه ضرب مثلا باقدامه وجرأته لجمع كبير من أبطال الاستعمار الاوروبي وبناته الذين جاؤوا من بعده فجاهدوا مثل جهاده ، فهو الذي شق الطريق أمامهم وهم نسجوا على منواله »

حرّكني هذا الكلام مع غيره مما قرأت من كتاب الاوروبيين الذين أشادوا بعمل البرنس ارناط ، أن أتتبع هذه الملحمة ، التي لم تعجبني الدوافع التي أملتها ، وإن كانت عملا حربيا كبيراً فيه المجازفة والمخاطرة إلى أبعد حدودها ، وأعجبت من عمل مصر ورجال صلاح الدين الذين عالجوا الموقف وخطورته بجرأة وإقدام ومجازفة لا تقل عما لدى الخصم وكان أن كتب النصر لهم .

فلنقف هنيهة لننظر ما يقدمه لنا ذلك العصر من بطولة وقوة ومن مشاكل وأحداث ومصاعب : في الفترة التي برز فيها هذا الخطر كان صلاح الدين بعيداً عن مصر ، يجمع شتات ملك الشام . كان ينازل الموصل بعد أن تم له فتح حران وسروج وسنجار ونصيبين والرقة وجيمها من بلاد الفرات الشامية ، فإذا برسول خليفة بغداد يستعطفه بشأن الموصل فيرحل عنها ليأخذ حلب من عز الدين مسعود الاتابكي ويعوضه عنها بسنجار .

في وسط هذه المعامع القائمة وتبدل الدول حيث يعمل البطل الكبير إلى عودة حدود المملكة المصرية الإسلامية إلى سابق عهدها ، كما كانت أيام آل طولون والاخشيد والفواطم في إبان مجدهم ، يفاجأ بهذه الحركة التي يقصد منها عرقلة مشاريعه وقطع اتصاله مع عاصمة ملكه . وسترى أن العامل الكبير أدرك خطورة هذه الحملة فقطع ما كان مزمعا عليه وعاد إلى الشام ليدبر حملاته الكبرى التي افتتح فيها أراضي الكرك والشوبك ثم انتهى إلى حطين حيث وقع البرنس ارناط اسيراً بين يديه .

لقد خدم ارناط العروبة ودين محمد ، فقد كنا نحبو إلى حطين

حبواً ، فإذا بالطاغية وماحمته التى اثارها يجملنا نركض إليها ركضا ، نعم ، لنكتب على صعيد فلسطين أنباء المعركة الفاصلة فى التاريخ والتى حطمت ملكا أنشأه الفرنجة ظلما على أراضى آسيا الإسلامية بضربة واحدة ، وقدم ارناط للمشرق كأساً مملوءة بالظفر شربها أبطالنا بعد مضى قرن من الزمن على المعركة الأندلسية الكبرى التى انتصر فيها يوسف بن تاشفين على جموع الاسبان وفلول الادفونش (٤٧٩هجرية - ١٠٨٦ميلادية) وأثبت عن حق أن عزائم المرابطين من قبائل المغرب كانت أقوى من عزائم الاسبان وفرسان أوروبا .

تلك هى الملحمة التى كانت فى الماضى نعمة علينا فالبستنا من بعد حطين ثوباً من القدرة والانتصار ، مالى أراها تعاودنى وتقلق مضاجعى ؟ اهناك أشياء آتية المسها من بعيد ، سيخلقها المستقبل لنا؟

أنى أذكر تماماً أنه فى عام ١٩٣٥ حينما كنت بالقدس جاء إلى كاتب يهودى وقدم إلى مؤلفا بالعبرية كتبه عن أراضى النقب وطلب إلى أن أقرأه . وكان أن ساءلت نفسى ما الذى يشغله بهذه البقعة النائية عن الحضارة الخالية من السكان ، وماذا يقصد هؤلاء من النقب ، وهم لا يكادون يصلون إلى قرية بئر السبع إلا بشق الأنفس ؟ لم أر الأمر بعين الجد ، ودار حديث مع المؤلف عن هجرة إسرائيل من وادى النيل وضلالهم فى سيناء ، وعرضنا لكلمة التيه وعلاقة هذا الاسم بتلك القبائل التى تخطر فى الريف المصرى باحثة عن المرعى لقطعانها من الغنم والتى يطلق عليها العرب من السكان اسم هتيم ؟ هل هم سكان التيه ؟ لا أدرى . وما خرج المؤلف حتى فتحت الكتاب فإذا به خريطة شاملة لتلك البقعة الهامة من أرض الشرق العربى التى ستؤثر فى تاريخنا لألف سنة قادمة . واتجهت انظارى إلى العقبة إذ هناك تنتهى أراضى فلسطين الحديثة ، وتذكرت النزاع الذى قام عام ١٩٠٦ بين مصر والدولة العثمانية أو بين بريطانيا وتركيا . وتخيلت مجموعة كبيرة من الوثائق الرسمية والخرائط كنت اطلعت عليها من زمن مضى ومعها صور للفرمانات السلطانية التى منحت للخديويين والولاة ، وكانت الحدود بين مصر والدولة صاحبة السيادة عليها تنتقل بين السويس والعقبة أى تنتهى مرة هنا وأخرى هناك

فما الذى حرك السياسة البريطانية عام ١٩٠٦ لاثارة مسألة العقبة وجعلها مسألة دولية وما الذى دفعها لكى تفرض إرادتها فرضا على الدولة صاحبة السيادة على مصر ؟ أكانت تقرأ فى عالم الغيب والشهادة تطورات ضرب فلسطين ومواقع القتال أم معارك الدردنيل عام ١٩١٥ ؟ أما التقارير الرسمية والأوراق السرية فقد أظهرت للعيان أن خطط اقتحام المضايق وغاليبولى قد وضعتها قيادة البحر مع اشتراك قيادة البر فى سنة ١٩٠٦ وهى السنة التى تمت فيها اتفاقات العقبة بين مصر وانجلترة من جانب والدولة العلية من جانب آخر ، فهل كان هذا من قبيل المصادفة ليس إلا ؟ لا أستطيع لذلك جوابا لأن للسياسة الأوروبية أسراراً وطلاسم أعجز عن فهمها .

مر كل هذا بذاكرتى بعد أن قدم المؤلف اليهودى كتابه مجلداً تجليداً حسناً ومهدى إلى ممثل الدولة التى مهدت له الدراسة وسهلت له التنقل فى ربوعها ليبحث مسألة علمية ، وليساهم بقسط ضئيل فى المعلومات والابحاث عن أرض النقب ، والنقب اسم متسع يشمل اجزاء من فلسطين وغيرها فى نظره .

وتمر الأيام والسنوات تترى وتشاء الأقدار أن أعيش بمصر بعيداً عن الحياة العامة ، فتهتز نفسى يوماً اهتزازاً قوياً ، ذلك لأن الجرائد اليومية تنشر ضمن أخبارها برقية من فلسطين تنبىء بأن جماعات صهيونية زحفت على أرض النقب وانشأت فى بضع ساعات عشر مستعمرات يهودية فى أماكن لم تكن مسكونة من من قبل .

نعم نقلت العمال والزراع والسكان ومواد البناء والبيوت مفككة وآلات الزرع والأثاث على السيارات فى ليلة واحدة وانشأت المستعمرات انشاء وأحكمت البناء ولم تقدر السلطات على الوقوف أمام هذه الحركة ولا ردها ، ولم يكن هناك سكان لأن أراضى النقب غير عامرة ، أما أهل البلاد وأصحابها فكانوا فى نوم عميق

هنا انتبهت وعدت إلى حملة ارناط أطلب الوحى منها . ألم ينقل المراكب والسفن مفككة على الجمال ؟ ألم يحط مشروعه بالكتمان ليبرز عنصر المفاجأة والمخاطرة ، ألم يكن سريعاً فى تصميمه وتنفيذ أغراضه . ولكن جاء رد الملك العادل سريعاً وحاسماً ، لم يحجم ويتردد ، لم يستشر ولم يترك الوقت يغالبه بل انشأ الأسطول ودفعه إلى البحر ، وجاء بالحاجب لؤلؤ وكان مظفراً وشجاعاً ومجداً فاخذ الأمر بالفاجأة والمخاطرة والاقدام وكتب

للمسلمين صفحة من المجد .

فأين عمله من عملنا اليوم ونحن إذا رصفنا طريقا بين مصر والعباسة أمضينا الشهور والسنوات وغيرنا يقيم عشر مستعمرات في ليلة واحدة ؟ .

رأس النقب بعمر وخليج العقبة تعود إليه الحياة ، إنها لكبيرة على النفس لأن صفحة جديدة من العراك والتصادم تبدأ ، لو كنا احياء نشعر بالاعصار القادم علينا .

***

إذا اردت أن تعرف بالضبط مدى هذه الصيحة ، أفتح خريطة لهذه المنطقة تجد حدود أربع دول تتلاقى في بقعة واحدة هي نهاية خليج العقبة ، وتبدأ حدود مصر من « طابة » وهي مع فلسطين لايشاركهما فيها أحد ، أي إذا اردت الذهاب لشرق الأردن أو الحجاز أو نجد ، يجب أن تمر بالممر الفلسطيني وهو مثل ممر دانتزيج الشهور ، وبهذا الممر تتصل فلسطين لأول مرة في التاريخ مع المحيط الهندي واستراليا بدون أن تحتاج لقناة السويس .

ماذا يخبئه لنا هـــذا الاتصال وماذا سيكون من أثر هذا الممر الأرضي؟ أشياء كثيرة سيعرفها الأبناء والأحفاد قبل أن يلمسها الأحياء الآن لانهم لاهون بأنفسهم وأطماعهم — أما من الناحية الأخرى فهنالك تتلاقى حدود مملكتين هما العربية السعودية وشرق الأردن ، وتقع مدينة العقبة في داخل حدود الثانية .

لننظر الآن ماذا يقول القدماء عن العقبة : هي عقبة ايله وهي مدينة بين الفسطاط ومكة على شاطئ البحر تعد في بلاد الشام وهي جليلة بها مجتمع حاج الفسطاط والشام[1] . وورد عن أيلة في قاموس الكتاب المقدس أنها فرضة شهيرة في أرض أدوم على الشاطئ الشرقي من الخليج ، مربها بنو اسرائيل وكانت ذات شأن في زمن سليمان والارجح أن داود تغلب عليها ثم استرجعها أهل أدوم . ونقل المقريزي في خططه أنها « كانت حد مملكة الروم وعلى ميل منها باب معقود لقيصر وكان بها قوة مسلحة يأخذون المكس ، وكانت في الإسلام منزلا لبني أمية وأكثرهم موالي عثمان بن عفان وكانوا سقاة للحج ، وكان بها علم كثير وآداب ومتاجر وأسواق عامرة وهي كثيرة النخل » ، وقال عن العقبة « لايصعد إليها من هو راكب ، ولذلك أصلحها فائق مولى خمارويه بن أحمد بن طولون ومهد الطرق إليها » ، وعرض في خططه إلى الحوادث التي نحن بصددها أي إلى حملة البرنس ارناط بتفصيل أعم مما ذكره في السلوك فقال نقلا عن القاضي الفاضل : « في سنة ٥٦٦ أنشأ صلاح الدين مراكب مفصلة وحملها على الجمال وسار بها من القاهرة في عسكر كبير لمحاربة « أيلة » وكان الافرنج قد ملكوها وامتنعوا بها فنازلها في ربيع الأول وأقام المراكب وأصلحها وطرحها في البحر وشحنها بالمقاتلة والأسلحة وضيق عليها الحصار في البحر حتى فتحها ثم أسكن فيها جماعة من ثقاته وقواهم بما يحتاجون إليه من سلاح وغيره وعاد إلى القاهرة »

وعن القاضي الفاضل أيضا « في سنة ٥٧٧ وصل كتاب من نائب القامة ان المراكب على تحفظ وخوف شديد من الافرنج إذ وصل البرنس (يقصد ارناط صاحب الكرك) وسير عسكره إلى ناحية تبوك ، وربط جانب الشام لخوفه من عسكر يأتي لمحاربته من مصر » وإنما سقنا كل هذه الاشارات ووضعنا في وسط كلامنا ما سجلته المراجع لكي نثبت للقارئ المتيقظ الذي يهمه أمر مصر والبلاد العربية ومستقبل الأجيال القادمة شيئا واحداً : هو أن خليج العقبة ورأسه حيث ملتقى الحدود الأربعة كان موقعاً استراتيجياً مهماً جداً يؤثر في عوامل التاريخ وبناء الممالك وفي حفظ الحدود وسوق الجيوش في الجاهلية وفي الإسلام وقد ظهرت خطورته في الحروب الصليبية وكاد أن يكون ضياع هذا الركن حاسماً لولا أن قيض الله للمسلمين الملك القائد العظيم صلاح الدين الأيوبي ، الذي عرف في الوقت المناسب أن يسد هذا الخرق ويحفظ هذا الثغر ويقي البلاد من عبث « أرناط » واخطار رجاله

ونعلم الآن ان هذا الموقع لم يكن مجمع الحاج من مصر والشام فحسب بل كان أكثر من هذا كان طريق الاتصال الوحيد بين مصر والشام حينما انقطع الطريق المعتاد بينهما بتهديد الصليبيين وأنه لولاه لتعذر على جنود شيركوه وابن أخيه صلاح الدين انقاذ مصر ، ولولاه لتعذر على جند مصر الحصول على شرف القتال بمعارك فلسطين والشام . وإذا قلت ان طريق البحر كان مفتوحاً بين مصر والحجاز فلدينا وصف شامل عن رحلة ابن جبير الأندلسي من القاهرة لجدة وما لقيه من المتاعب في طريق البر والصحراء وطريق البحر من عيذاب وما تعرض له من اخطار . فنحن أمام

(١) كلام أبي عبيدة نقله ياقوت

موقع هام من مواقع التاريخ يستدعى أن تتلاقى الحدود بشكل يسمح باجتماعها فى نقطة واحدة . وتنحدر من الماضى إلى العصر الحاضر وأهم مظاهر الدنيا هى الحروب ، فقد ذكرت المؤلفات الرسمية التى نشرتها وزارة الحربية البريطانية عن تاريخ الحرب العظمى الأولى طبعة ١٩٢٨ ما يأتى « لقد أصبح من المحتم بعد نشوب معركتى غزة الأولى والثانية مارس وإبريل سنة ١٩١٧ احتلال العقبة ، وقد تم ذلك بواسطة لورنس فى يوليو ١٩١٧ ، وباحتلالها مهد الأسطول فى جعلها قاعدة حربية ومركزا عسكريا ممتازاً ساعد كثيراً فى تهيئة واعداد العمليات الحربية التى سندت ميمنة جيش اللنبى فى قتاله مع الأتراك » ولبيان ذلك نرجع إلى ما كتبه حاكم القدس السابق « سنورس » فقد قرر « أن فترة الجمود التى سادت الجزيرة قد انتهت باحتلال العقبة التى أخذت مكان رابغ والوجه ، وجاءت الحرب العظمى الثانية فإذا بخليج العقبة من أحسن الأماكن أماناً لتفريغ العتاد الأميركى والمؤن والذخائر لبعده عن غارات الطائرات ، وكان أن انشأت السلطات العسكرية البريطانية خطاً حديديا اضافيا يبدأ من مدينة معان وهى على الخط الحديدى الحجازى ويتجه إلى الجنوب مشرقاً حتى ينتهى إلى رأس النقب . ومن هناك نظراً للانحدار الشديد تعذر أن يصل القطار إلى البحر فاكتفى بانشاء طريق معبد للسيارات انتهى إلى ثغر العقبة

هذه كلمة أولى عن المنطقة الواقعة على رأس خليج العقبة وهى فى الوقت نفسه رأس النقب إذا أطلقنا هذا الإسم على الشكل المخروطى الذى يبدأ عريضا من الشمال ويتقارب كلما انحدر جنوبا وهو الجزء من فلسطين الواقع بين حدود مصر وحدود شرق الأردن والذى صمم الصهيونيون على استعماره واستغلاله للوصول إلى البحر الأحمر ، وهم يتحدون بعملهم التاريخ والطبيعة والأقطار العربية . فما الذى أعددناه لمواجهة هذا النشاط الانشائى ؟

تبدو لى دائما الحركة الصهيونية أنها تحاول أن تأخذ شكلا توسميا جارفاً ، ولكنى مع هذا ألمس أنها تسير وئيداً بخطوات منظمة ومتصلة وهى حركة خطيرة لأنها لا تحمل طابع الغرور والادعاء ولا تعتمد على الاغراء والزخرفة والتشويق وانما على الوسع والطاقة والعلم والتنظيم ، وتمر الأيام فإذا بخبر من رأس خليج العقبة ينبىء بان أول منظمة يهودية لصيد الأسماك قد ظهرت على شاطىء البحر الأحمر وستكون بعد هذه الخطوة خطوات .

فاذا اعددنا للعمل فى هذه الناحية ؟ وهل المياه الاقليمية لمصر والمملكة السعودية محروسة ؟ وما هى القوة التى تحرسها فى خليج العقبة فى الوقت الذى تمر به أكبر الحوادث فى مستقبل العالم العربى ؟ لا أعرف شيئا عن اجتماعات العرب واتجاهات الجامعة فأنا بعيد عن الحاضر أعيش فى التاريخ ، ولذلك انقل من كتاب بعث به السلطان صلاح الدين إلى أخيه عن الاسرى الذين أتى بهم لؤلؤ إذ قال « هؤلاء الاسارى قد ظهروا على عورة الإسلام وكشفوها ، وتطرقوا بلاد القبلة وتطوفوها ، ولو جرى فى ذلك سبب والعياذ بالله اضافت الاعذار إلى الله والخلق وانطلقت الألسن بالمذمة فى الغرب والشرق » وتقدم الشعراء بمدح الحاجب لؤلؤ فمن ذلك قول أبى الحسن ابن الدروى .

مر يوم من الزمان عجيب ... كاد يبدى فيه السرور الجماد
إذ أتى الحاجب الأجل بأسرى ... قرنتهم فى طيها الاصفاد
بجمال كأنهن جبال ... وعلوج كأنهم أطواد
قلت بعد التكبير لما تبدى ... هكذا هكذا يكون الجهاد
حبذا لؤلؤ يصيد الأعادى ... وسواه من اللآلى يصاد

وهو شعر كما ترى يتفق مع حالنا اليوم فى البيت الأخير .

أحمد رمزى

إدارة البلديات العامة

تقبل العطاءات بإدارة البلديات (بوستة قصر الدبارة) لغاية ظهر يوم ٤ مارس سنة ١٩٤٧ عن عملية مياه ارتوازية ببلدة نقادة .

وتطلب الشروط والمواصفات الخاصة بذلك من الادارة على ورقة دمغة فئة الثلاثين مليما مقابل مبلغ ١ جنيه للنسخة الواحدة عدا مصاريف البريد ٦٧٨٧